المفاخرات [٣]

# مفاخرة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة

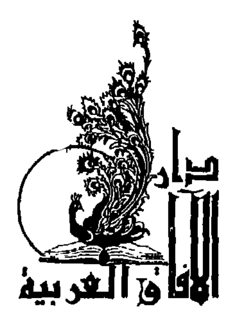
تأليف

محمد بن سليمان

(ت ٨هـ/١٤م)

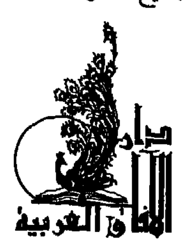
تحقيق

محمد الششتاوي



# مفاخرة بين
# مكة المكرمة والمدينة المنورة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م


القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت
(من شارع الطيران) - مدينة نصر
تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ١٨٩٢ لسنة ١٩٩٩
الترقيم الدولى : 977-5727-36-7

# مقدمة

موضوع كتابنا هذا هو « **مفاخرة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة**» .

والمفاخرات قرينة المناظرات، والمناظرة بدأت أولا كعلم يبحث فى الشئون الفقهية والدينية والعلمية ، وكان لهذا العلم أصوله وآدابه ومنهجه العلمى، وكان الغرض منه الوصول الى الحق والصواب .

ثم سرعان ما انتقلت المناظرة الى نواحى أدبية فكهة حولتها الى مفاخرة ولكى تحقق المناظرة غرضها كان لابد لها من ثلاثة شروط ، أولها أن يجمع بين خصمين متضادين أو متباينين فى صفاتهما بحيث تظهر خواصهما بالمقابلة كالصيف والشتاء والماء والهواء ، والشرط الثانى أن يأتى كل من الخصمين فى نصرته لنفسه وتفنيد مزاعم منافسه بأدلة من شأنها أن ترفع قدره وتحط من مقام الخصم ، والشرط الثالث أن تصاغ المعانى صوغا حسنا وترتب على سياق محكم ليجذب السامع وتنمى الرغبة فى حل المشكلة ، وتتفق هذه الشروط الثلاثة على مفاخرتنا هذه إلى حد كبير.

ومكة والمدينة مدينتان حبيبتان لكل مسلم ، وقد فاضل بينهما الناس فى كل زمان ومكان ، ومن المناظرات التى فاضلت بينهما مناظرة الزرندى ومناظرة محمد العجان ، ورسالة الحجج المبينة فى التفضيل بين مكة

والمدينة للسيوطى، ومفاخرتنا هذه التى بين أيدينا التى تتسم بعمق الموضوع وطرافة الأسلوب عسى أن تنال إعجاب القارئ.

*** تعريف بالمفاخرة ومنهج تحقيقها :**

هذه المفاخرة عبارة عن رسالة مخطوطة ، ولا يوجد لها إلا نسخة يتيمة وحيدة ـ موضوع تحقيقنا ـ ولا يوجد منها أى نسخ أخرى فى مخطوطات دار الكتب المصرية ومصورات معهد المخطوطات العربية.

وهى تقع فى أول مجموعة رسائل مخطوطة بدار الكتب المصرية وتحمل رقم ٧٩٤ أدب تيمور ، ومصورة على ميكروفيلم رقم ٢٨٢٣٦ وهى تقع فى ١٨ صفحة وعدد أسطر الصفحة الواحدة ٢٥ سطرا ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد من ١٠ الى ١٢ كلمة.

وهى مكتوبة بخط يغلب عليه النسخ وبعضه رقعة ، إيقاعه سريع، فجاء غير متقن ، وغير مشكول، ومتحرر من الهمزات ، وبه تصحيف وتحريف كبير جدا ، وقد وجدت صعوبة فى قراءة النص واجتهدت كثيرا حتى وصلت إلى أقصى ما يمكن من الصحة وأقل أخطاء فى القراءة.

وقد صححت الأخطاء التى وقع فيها الناسخ ، وعلقت على ما يستحق الإيضاح والشرح بالهامش مع عمل الفهارس اللازمة.

*** مؤلف المفاخرة وزمن التأليف :**

مجموعة الرسائل التى أولها هذه المفاخرة لها غلاف ، كتب فيها الناسخ

أسماء مؤلفيها وعناوينها إلا هذه المفاخرة، ولكنني توصلت إلى إسم مؤلفها ، إذ جاء عرضا فى متن الرسالة فى الصفحة رقم ١٠ من المخطوط وإسمه محمد سليمان .

ونظرا لعدم وجود أى نسخ أخرى للمفاخرة ، فنحن نجهل لقبه وإسم شهرته ، ولكنني أرجح أنه فارسى أو عراقى النشأة لأنه أورد فى المفاخرة عبارة « الحسين عليه السلام » وأهل العراق وفارس تعودوا على هذه العبارة سواء أكانوا شيعة أو سنّة .

وقد أمدنا المؤلف بمعلومة تقرب لنا زمن تأليفها إذ ذكر أنه ألفها بعد اطلاعه على مناظرة بين مكة والمدينة ألفها الشيخ على بن يوسف الزرندى الفارسى الأصل فى سنة ٧٦٢ هـ ، وقد حققها الأستاذ سعيد عبد الفتاح.

ولهذا أرى أن مفاخرتنا هذه ألفت ما بين سنة ٧٦٢ هـ وهى سنة تأليف مناظرة الزرندى ، وسنة ٧٧٢ هـ وهى السنة التى توفى فيها الزرندى ، لأن محمد سليمان لم يورد عنده ذكره للزرندى عبارة « رحمه الله » مما يدل على وجوده حيا زمن تأليف المفاخرة .

*** تقييم النص :**

*** أولا : من حيث الأسلوب :**

نظرا لاطلاع مؤلف مفاخرتنا هذه على مناظرة الزرندى بين مكة والمدينة أيضا ،وإقراره ببراعته وتمكنه من صنعته ، كان لزاما عليه أن يكون عمله هذا نظيرا و ندّا لعمل الزرندى، إن لم يتفوق عليه شكلا و مضمونا .

ولما اختار المؤلف قالب المفاخرة لموضوعه ، فقد وفق فى شكل وأسلوب

رسالته أيما توفيق ، فامتازت المفاخرة ببراعة الاستهلال واحكام البناء الدرامى القائم على حوار موضوعه صراع بين طرفين بدأه بجمل قصيرة متعاقبة ذات جرس موسيقى أخاذ ، ويتصاعد الصراع الدرامى فيتحول الى فقرات مطوّلة تسمح لكل طرف بسرد مميزاته ومثالب منافسه ، وينهى المؤلف المفاخرة بحل يرضى الطرفين ، إذ تثنى كل بلدة على الأخرى ، وعلى نفسها بما لها من أفضال ومميزات إذ أن كل منهما نال من تكريم الرحمن ما يليق بها.

وقد جاء أسلوب مؤلفنا شبيها إلى حد كبير بأسلوب الزرندى ، وقد فرض عليه ذلك أسلوب الكتابة الأدبية فى زمنه ، فنراه مثلما فعل الزرندى - يستشهد بآيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم - وقد زاد المؤلف هنا فى ذلك عن الزرندى ، كما استعمل الحكم والأمثال السائدة فى عصره.

وقد عارض المؤلف الزرندى فى بعض جمله وألفاظه ، ووفق فى محاكاته الى حد كبير.

وهذه المناظرة أطول من مناظرة الزرندى ، كما أن الزرندى شغل جزءا من مناظرته بقصيدة طويلة فى مدح الأمير يلبغا السالمى ، مما أضعف الغرض الموضوعى لعمله.

## * ثانيا : التقييم من حيث الموضوع :

إذا قلنا أن الزرندى ربما قد تفوق فى الأسلوب ، فان محمد سليمان مؤلف هذه المفاخرة قد تفوق على الزرندى تفوقا واضحا فى المضمون ، ونجح نجاحا باهرا فى ابراز موضـــوع المفاخرة ، اذ قدم لنا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بكل من مكة والمدينة، بإيجاز واف دقيق يتفق مع سيرة ابن هشام.

كما قدّم لنا أهم الأحداث الدينية والتاريخية التى شهدتها المدينتان بصدق وأمانة، وقد دعم المؤلف مضمونه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأخبار والآثار.

إلا إنني آخذ عليه عدم التعرض لحال مكة والمدينة فى زمنه مثلما فعل الزرندى.

وبعد ......

فإننا نقدم نصا عن مكة المكرمة والمدينة المنورة ـ أعز مدينتين على قلب كل مسلم ـ وندعو الله سبحانه وتعالى بالتوفيق، وعلى الله قصد السبيل.

**محمد الششتاوى**

الحمد لله الذى ألبس أطواق العليا سوالف الحرمين الشريفين ، وأقبس آفاق الدنيا عوارف المحلين المنيفين ، وجعلهما لمعصمى أرضه سوارين وزينتين ، وسوى بينهما فى فضل فاتحة الكتاب فأنزلها مرتين فى المدينتين ، ليحتاز(١) كل منهما من تحميده نصيب ، ويضرب فيهما سهم تمجيده المصيب .

فلا شرف أفضل من تنزيل أم الكتاب ، مرة بأم القرى ومرة بطيبة(٢) بإجماع المفسرين والقراء ، وما سواها من سور القرآن ، وأحكام الفرقان وبيناته ، تساجلا فيه وتباريا(٣) ، وتجادلا فيه وتجاريا ، فنور الوحى على معالمهما متألق ، وطيره فى جو أعلامهما محلق ، وهذه دلالة على تساويهما إلى ربوة فى الحظ المجيد ، وإشارة إلى تجاريهما فى علوة تجمعهما فى التشريف والتمجيد ، فلا شرف تدلى به مكة المشرفة ، إلا وقد مسحت على أعرافه طيبة(٤) المعرفة ، ولا رائحة مجد نصبها لهما الروح الأمين(٥) .

---

(١) ( ليحتاز ) غير واضحة فى الأصل ، وتوصلت الى قراءتها من وجود حرف الزاى و جزء من حرف الألف قبله .

(٢) أم الكتاب هى سورة الفاتحة ، و أم القرى هى مكة المكرمة ، وطيبة هى المدينة المنورة .

(٣) الواو غير موجودة فى الأصل ، وأضفتها لسياق المعنى .

(٤) ( طيب ) فى الأصل .

(٥) الروح الأمين هو جبريل عليه السلام .

إلا و قد تلقاها عرايتهما باليمين ، ولا حلبة سباق .إلا وقد جرت (١) كل واحدة (٢) منهما فى مضمارها.

والصلاة على من هذه مسقط رأسه وسما نبراسه، وهذه مشد فراسه وموئل مراسه، وهذه محط مولده المنجب ، وهذه محط عذيق هجرته المرجب،(٣)، ولهذه فضل بكونها دار أهله وأسرته، ولهذه نبل بكونها دار منتقله ونصرته ، وبين أخشبى(٤) هذه تنفس صبح التنزيل وبين حَرّتى(٥) هذه معزتى روح الله جبريل ، وفى هذه عقدت حياته من شرف(٦) طول الاقامة نظاما ، وفى هذه دفنت رفاته من شفيع القيامة عظاما ، ولكل واحدة منهما حرم بحرم الله،

---

(١) جلى فى الأصل، وجرت تناسب سياق الكلام.

(٢) (واحد ) فى الأصل.

(٣)عذيق : تصغير عذق ، وهى النخلة نفسها ، والمرجب : الذى تبنى الى جانبه رجبة أى دعامه، لكثرة حمله وعزه على أهله وهو مضروب به المثل للرجل الشريف المبجل، وهاتين الكلمتين جاءت فى عبارة قالها أحد الأنصار فى سقيفة بنى ساعده لاختيار خليفة بعد وفاة الرسول( ص ) إذ قال « أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش. . . » السيرة النبوية لابن هشام ، نشر مكتبة حميدو بالأسكندريه جـ ٤ ص ١٧٦ .

(٤) الأخشبين : جبلين يحيطان بمكة .
وقد حدث بعدما وجده الرسول ( ص ) من أذى قومه وتكذيبهم، أن نزل اليه ملك الجبال يستأمره أن يطبق عليهم الأخشبين فقال « بل أستأنى بهم ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئا ».

(٥) الحرة: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت ( ح ) حرار ، وهى موضع بالمدينة المنورة يسمى حرة واقم ، وكانت المدينة محاطة بمثل هذه الحرار وفى الحديث عن حرم المدبنة « حرام ما بين حَرّتيها وحماها كلها لا يقطع شجره إلا أن بعلف منها ».
انظر السيد سابق ، فقه السنه، دار الكتاب العربى، المجلد الأول، ص ١٩٠ .

(٦) (أشرف ) فى الأصل.

لا يعضد شجره[1] ولا ينفر صيده، ولكل قضية فيما حكم مكرم لا يباح ليله ولا يحل قيده.

ولما سمعتا هذه المساواة بينهما فى الشرف والاحترام ، اعتقدت كل بلدة بأن لها من الله تعالى الاكرام.

**فقالت مكة** : كان لى مبدأ الوحى والهداية.

**قالت المدينة**: كان لك الهداية ولى النهاية.

* * *

**قالت مكة** : كان لى من قبلك متعبده.

**قالت المدينة** : كان فىَّ من قبلك مسجده.

* * *

**قالت مكة** : كانت زوجته أم بناته الأربع من بناتى (٢).

**قالت المدينة** : كانت زوجاته التسع من حسناتى (٣).

---

(١) يعضد : يقطع. وفى حديث رواه ابن عباس ، أن رسول الله (ص) قال يوم فتح مكة : « ان هذا البلد حرمه الله لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عَرفها ، ولا يختلى خلاها » صحيح البخارى ، نشر دار الحديث بالقاهرة ، المجلد الأول ، الجزء الثانى ، ص ٤٠١ ، ٤٢٦ ، ٤٣٦ .

(٢) هى أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وبنات الرسول هن رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة الزهراء.

(٣) زوجات الرسول التسع والذى مات عنهن بالمدينه:

١ ـ عائشة بنت أبى بكر.
٢ ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب.
٣ـ أم حبيبة بت أبى سفيان.
٤ ـ أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيره.
٥ ـ سودة بنت زمعة بن قيس.
٦ـ زينب بنت جحش بن رئاب.
٧ ـ ميمونة بنت الحارث بن حزن.
٨ ـ جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار.
٩ ـ صفية بنت حيى بن أخطب.

**قالت مكة** : كانت أمه آمنة من عقائلى.

**قالت المدينة** : كانت سلمى زوجة جده عبد المطلب من قبائلى[١] .

* * *

**قالت مكة** : كانت عماته وخالاته من جواهر بحرى.

**قالت المدينة** : كانت جداته وخالاته من قلائد نحرى[٢].

* * *

**قالت مكة** : لو رغب فى نسائك لنكح أوسية أو خزرجية،

**قالت المدينة** : قد نكح مارية القبطية وصفية الخيبرية ، لكنه اتخذ قومى أنصارا ولم يتخذهم أصهارا.

* * *

**قالت مكة** : أقام في من عمره ثلاث وخمسين سنة (٣).

**قالت المدينة** : أنا ورثت بدفنه معى محاسنه.

**قالت مكة** : أنا ربيته صبيا،

**قالت المدينة** : أنا آويته نبيا،

---

(١) ( زوجة جده = وجده فى الأصل) وما أثبته يتفق مع سياق النص.

(٢) (بخرى) فى الأصل.

* النحر هو أعلى الصدر الذى تعلق به القلائد (الحلى).

(٣) عن إبن عباس رضى الله عنهما قال: « بعث رسول الله (ص) لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى اليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين » صحيح البخار ، المجلد الثانى ، جـ٥ ص ٣٢٨، ٣٢٩ .

**قالت مكة** : أنا مسكن أبويه الذبيحين الأصغر والأكبر (١).

**قالت المدينة** : أنا مولد ولديه الكريمين بشير وبشر (٢).

* * *

**قالت مكة** : أنا أحب أرض الله اليه لولا أخرجه قومه عنى (٣).

**قالت المدينة** : أنا أعز بلاد الله اليه ، فمن أفضل منى .

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله (ص) « ما أطيبك من بلد وأحبك اليّ ، ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك » .على الجندى: نفح الأزهار فى مولد المختار :ص ٥٩ .

**قالت مكة** : أنا بكة أبك أعناق الجبابرة بكا(٤).

**قالت المدينة** : أنا الطيبة أنفى الخبث كما ينفى الكير الحديد وأسبك قلوب الصالحين سبكا(٥).

---

(١) الذبيح الأكبر هو سيدنا إسماعيل بن سيدنا إبراهيم عليهما السلام ، والذبيح الأصغر هو عبد الله بن عبد المطلب والد سيد الخلق، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، والذى كاد يذبح وفاءا لنذر نذره أبوه عبد المطلب حين غالبته قريش على بئر زمزم التى حفرها ، ولم يكن له من ولد سوى ابنه الحارث، فنذر ان صار له عشرة من الأبناء يمنعون عنه أعداءه، ليذبحن أحدهم، وحين اجتمع له عشرة من الأبناء أراد أن يفى بنذره، فأجرى قرعة على أبنائه فكانت من نصيب عبد الله، فوقفت له قريش لينهوه عن ذلك، ورجعوا إلى رأى كاهنة أشارت عليهم بفدائه بالابل ، فتم فدائه بمائة من الأبل .

(٢) بشير وبشر صفتان لولديه القاسم والطيب أو الطاهر .

(٣) عن عبد الله بن عدىّ بن الحمراء ، أنه سمع النبى (ص) وهو يقول وهو واقف بالحزورة( رابية ) فى سوق مكة : والله إنك لخيرأرض الله ، وأحب أرض الله الى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت.

(٤) بكّ الشئ بكّا : هشّمه ومزقه .

(٥) فى صحيح مسلم : " .. إلا ان المدينة كالكير ، تخرج الخبث ، ولا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها ، كما ينفى الكير خبث الحديد وفى صيغة أخرى: " انما المدينة كالكير تنفى خبثها ، وينصع طيبها" .

**قالت مكة** : أنا التى سّمانى الله فى كتابه مرتين.

**قالت المدينة** : أنا التى ذكرنى الله باسمى فى أكثر من سورتين .

عن جابر ( ر) قال رسول الله ( ص) : " المدينة كالكير( منفاخ الحداد ) تنفى خبثها، وينصع طيبها.

عن أبى هريرة وزيد بن ثابت :« انها تنفى الرجال كما تنفى النار خبث الحديد ». صحيح البخارى: المجلد الأول ، جـ٣، ص ٤٧٠ ، ٤٧٣ وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى ، جـ٣، ص ٣٢ ، ٣٣ .

**قالت مكة** : فى بنىّ نزلت ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾(١) .

**قالت المدينة** : فى بنىّ نزلت ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (٢).

* * *

**قالت مكة**: أما قرأت ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ** ﴾(٣).

---

(١) سورة الحشر آية ٨ .

(٢) سورة الحشر آية ٩ .

(٣) سورة آل عمران آية ٩٦.

**قالت المدينة** : أما رويت « بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة »[١] فأين لك مثل هذا الفضل العظيم .

* * *

**قالت مكة** : إلىّ الحج ولى أيام النفر .

**قالت المدينة** : حسبى ( أتموا يا أهل مكة ) فأنا قوم سفر . وقد نسى الناسخ هنا كلمة( للذى ) .

**قالت مكة** :منذ نزلت ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[٢] قرت أجفانى .

**قالت المدينة** :طابت نفسى منذ سمعت ما روى « من حج ولم يزرنى فقد جفانى » .

* * *

**قالت مكة** : لى يوم عرفة وليلة المزدلفة[٣] .

**قالت المدينة** : لى القبة الشريفة والروضة المزلفة[٤] .

* * *

**قالت مكة** : لى البيت الذى توجه اليه الصلوات [٥] .

---

( ١ ) ورد هذا الحديث فى صحيح البخارى بصيغة « مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ، ومنبرى على حوضى » : المجلد الأول ، جـ٢ ، ص ٢٩٧ ، جـ ٣ ، ص ٤٣٧ .

( ٢ ) سورة القصص آية ٨٥ . ومن معانى كلمة "معاد" فى التفاسير ، هى مكة .

( ٣ ) المزدلفة : موضع بين عرفات ومنى .

( ٤ ) المزلفة : المقربة .

( ٥ ) اليه= عليه فى الأصل .

**قالت المدينة** : لى الضريح الذى توجه عليه الصلوات .

* * *

**قالت مكة** : فى فتحى نزلت ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (١) .

**قالت المدينة** : بقومى أنزلت ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (٢) .

* * *

**قالت مكة** : لى فضيلة « لا هجرة بعد الفتح » (٣) فمن أين لك مثل هذه الفضيلة النبيلة .

**قالت المدينة** : لى شرف « المحيا محياكم والممات مماتكم »(٤) فمن أين لك هذه المنقبة الجليلة .

**قالت مكة** : أسلم قومى والحمد لله وسلموا من النفاق .

**قالت المدينة** : آمن قومى والمنّ لله ولم يكبكبوا(٥) فى القليب يوم الانفاق .

(١) سورة الفتح آية ١ . (٢) سورة الفتح آية ٣ .

(٣) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :قال رسول الله (ص) يوم أفتتح مكة « لا هجرة ولكن جهاد ونية » . صحيح البخارى ، المجلد الأول ، الجزء الثالث ، ص ٤٦٢ .

(٤) قال رسول الله (ص) هذا الحديث بعد فتح مكة لما تخوف الأنصار أن يقيم الرسول بمكة : أنظر : السيرة النبوية ، حـ ٤ ، ص ٢٠ .

(٥) كبكب فلانا : قلبه وصرعه ، وفى القرآن الكريم " وكبكبوا فيها هم والغاوون" وتكبكب القوم : تجمعوا ، والكبكبة : الجماعة من الناس للتضام بعضها الى بعض ، والقليب : بئر ببدر طرح فيه جثث كفار مكة فى غزوة بدر . وعن عائشة أم المؤمنين : لما أمر رسول الله (ص) بالقتلى أن يطرحوا فى القليب ، طرحوا فيه ، وقال: " يا أهل القليب، بئس عشيرة النبى، كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وأوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس" . ثم قال: " ياأهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا، فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا، فقال المسلمون: يا رسول الله ، أتنادى قوما قد جيفوا، قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى" .السيره، جـ٢، ص ١٤٧ .

**قالت مكة:** قد كان ما كان اللهم غفرا.

**قالت المدينة :** من أصغر فضائلى قتل أكبر أشرافك أصغر بنى عفرا[1].

**قالت مكة:** تحلكت العقرب بالأفعى ، واستنت الفصال حتى القرعا [2]، هلا ذكرت عليا وحمزة وعبيدة بن الحارث[3] فهم الذين فعلوا هناك الأفاعيل وأنزلوا بقومهم الكوارث.

**قالت المدينة :** قد برز لقتالهم فأبوا إلا الأكف من رجالهم.

* * *

**قالت مكة :** لولا سادة قومى ما رأيت فى أفق بدر بدرا ، وما كانت لك يا طيبة الصولة والندرا.

**قالت المدينة :** أنسيت « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها »، أم تناسيت « أشيروا علىّ أيها الناس » ، يريد الأنصار بعددها وعددها، فقام إليه سعد بن معاذ فأحسن المقال[4] وأحمينا القتال ، وفينا و فيمن هاجر إلينا نزلت سورة الأنفال .

---

( ١ ) أصغر بنى عفرا: هو معوذ بن عفراء وهو الذى قتل أبا جهل فى موقعة بدر ، ولما أمر رسول الله( ص) أن يلتمس أبو جهل فى القتلى ، وجده عبد الله بن مسعود بآخر رمق ، فحز رأسه وجاء بها الى الرسول .

( ٢ ) استنت: بلغت السن ، والفصال : جمع فصيل ، وهو الذى فصل عن أمه لفطامه عن الرضاعة، والفصيل ولد الابل . أى بلغت السن الذى أهل لها الانقطاع والانفصال عن الأم، ومثل هذه العبارة ذكرها الزرندى فى مناظرته أيضا اذ ذكر على لسان مكة : " وا عجبا كيف جسرت على الآساد فى أجمها الأرانب ، لقد ذل من بالت عليه الثعالب ، وقد زاحمت الحملان القرع فى المرعى، وأسنت الفصال حتى القرعى... "

( ٣ ) الحرث فى الأصل ، وهو عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله ( ص ) .

( ٤ ) قال سعد بن معاذ لرسول الله ( ص ) : قد آمنّا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو=

وقد أحسن فينا وفيهم من قال (١):

قومى هم الذين أووا نبيهم وصدقوه وأهل الأرض كفار

إلا خصائص أقوام هم سلف للصالحين مع الأنصار أنصار (٢)

**قالت مكة**: أنجد من رأى حصناً، أنتم الأنصار ونحن الأمنا ، كانت منك النصرة وأنا المنصورة ، وشتان بين الروح والصورة ، منّى النبى ومنّى الخلفا، ومنك يا طيبة الوزرا ومنك النقبا (٣) .

**قالت المدينة** : نحن الأنصار ونحن السعدا، فاز قومى يوم أحد بالشهادة ، وظفروا يوم الحسرة بالسعادة ، وختم لهم بالحسنين (٤) وزيادة ، ولى عليك يا مكة فضل المواطن والمشاهد، وأنا المطوقة من الشرف والقلائد، والمتوجة من الفضل بالجواهر الفرائد،

---

= الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، انا لصبر فى الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منّا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله " فسر رسول الله (ص) بقول سعدونشطه ذلك ، ثم قال: " سيروا وأبشروا فان الله قد وعدنى احدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر الى مصارع القوم" السيرة ، جـ ٢ ، ص ١٦٣ .

(١) هو حسان بن ثابت ، شاعر الرسول .

(٢) يوجد تكملة فى سيرة ابن هشام ، جـ٢ ، ص ١٦٣ ،

مستبشرين بقسم الله قولهم لما أتاهم كريم الأصل مختار

أهلا وسهلا ففى أمن وفى سعة نعم النبى ونعم القسم والجار

(٣) منك= منى فى الأصل. والنقباء ورد ذكرهم فى بيعة العقبة الثانية ، إذ قال الرسول (ص) للأنصار : أخرجوا الىّ منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس. أنظر السيرة ، جـ٢ ، ص ٢٩ .

(٤) الحسنين هما اما النصر أو الشهادة.

تنقل (١) النجوم الثواقب ترابى، وحظائر القدس فى الفردوس أترابى، ولى فضل سورة الحجرات، وفىّ أنزل الله أكثر السورات، ومن تربتى امتدت يد الاسلام، ولقبتى تتوجه الصلاة والسلام، وفى محرابى كانت الآية الكبرى، ومن صخرة خندقى رؤيت قصور صنعا وفارس وكسرى،(٢) أين أنت ايتها المغفلة من فتوحى، وقد كنت بالأمس على قتلاك تنوحى، وأنا التى سيرت لفتحك الكتيبة الخضرا(٣) وإلى مناة قد سارت الأسرا(٤)، وأتت عام الحديبية ألوفا وسيّرت حبشيك(٥) إلى أحد فى الحافرة، وبقرت هنديك بطن

(١) تنتقل فى الأصل .

(٢) قال ابن اسحاق: وحدثت عن سلمان الفارسى أنه قال: ضربت فى ناحية من الخندق فغلظت على صخرة ورسول الله (ص) قريب منّى، فلما رآنى أضرب ورأى شدة المكان علىّ نزل فأخذ المعول من يدى فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى، قلت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله، ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟ ، قال : قلت نعم ، قال: أما الأولى فإن الله فتح علىّ بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح علىّ بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح علىّ بها المشرق .
السيرة ، حـ ٣، ص ١٠٩ .

(٣) الكتيبة الخضرا : هى إحدى كتائب الجيش الإسلامى يوم فتح مكة ، وكان فيها رسول الله (ص) وسط المهاجرين والأنصار .وقد سميت بذلك لكثرة الحديد وظهوره فيها فلا يرى منهم إلا الحدق من كثرة الحديد .

(٤) غير واضحة بالأصل ، وبعدها عبارة ساقطة فى الأصل.

(٥) هو وحشى قاتل حمزة فى غزوة أحد، كان عبدا حبشيا يجيد قذف الحربة كقومه الأحباش، وقد وعده سيده الجبير بن مطعم بالعتق اذا قتل حمزة ، وكذلك هند بنت عتبة زادته تحريضا ووعدته ببعض حليها الذهبية ، ومما يؤثر عن وحشى أنه قتل مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة وقد قال وحشى فى هذه المناسبة : "فإن كنت بحربتى هذه قد قتلت خير الناس وهو حمزة، فإنى لأرجو أن يغفر الله لى إذ قتلت بها شر الناس هو مسيلمة" ، السيرة جـ٣ ، ص ١١

حمزة وهى كافـرة، ولى البنات المؤمنات المسلمات السالمات، بكين على حمـــزة ، كمـا ناحت على الهديـل الحمـائم،وأحطن بمسجده( ص ) كما تحيط بالأعناق التمائم( ١ ) وهتنت من دموعهن على أبى يعلـى كل ديمـة( ٢ ) حتى قال عليه السلام حين سمع بكاءهن: « رحم الله الأنصار فإن المواساة منهم ما علمت لقديمة . »( ٣ ).

ومنهـم من قالت وقد أصيب أخوها وزوجها وأبوها: ما فعل رسول الله؟ قالوا: هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه( ٤ ) فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل.( ٥ ).

من أين لك يا مكة فى فضل النساء مثل هذه الحلل، وأنت يومئذ بما خصنا الله بـه من فضل الشهادة تبجحين ، ومن عجائبك أنك لفضلك علىّ اليوم ترجحين ، فهلا ذكرت ما كان منك فى الأيام الماضية ، ومن أيسر ذنوبك ما كان من أحداث معاوية .

---

( ١ ) لتمائم جمع تميمة وهى ما يعلق فى العنق لرفع العين والحسد .

( ٢ ) هتنت : هطلت وانهمرت، ديمة : المطر يطول زمانه فى سكون .

( ٣ ) أثناء عودة الرسول ( ص ) من غزوة أحد ،مرّ بدار من دور الأنصار من بنى عبد الأشهل وظفر ، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله( ص ) فبكى، ثم قال : لكن حمزة لا بواكي له ! فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير الى دار بنى عبد الأشهل أمر نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ( ص ) ، ولما سمع رسول الله بكاءهن على حمزة خرج عليهن وهن على باب مسجد يبكين عليه ، فقال: ارجعن يرحمكن الله ، فقد آسيتن ( عزيتن و عاونتن ) بأنفسكن ، وفى رواية ثانية ذكرها ابن هشام ، أن رسول الله لما سمع بكاءهن قال: رحم الله الأنصار ، فان المواساة منهم ماعلمت لقديمة، مروهن فلينصرفن"

السيرة ، جـ ٣، ص ٣٠.

( ٤ ) هى امرأة من بنى دينار، السيرة ، جـ ٣ ، ص ٣١. ( ٥ ) جلل: صغيرة .

فلما سمعت مكة بهذا الافتخار ، أرسلت على المدينة خليجا من بحرها الزخّار[١] ، فقالت :

أيتها العتوة[٢] المباركة بما جاء وردها منّى ، والبقعة المطهرة بما فاض اليها عنّى، وقد جعل الله لكل شئ قدرا . « مفرد » :

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه مالا يرى

« رويد يعلون الجدد ترك الخداع من أجرى من مائه أصبحت كما ورد، فى نارك المـاء برد، غداة عز عبد أمن ظمأ"[٣] رفقا بنفسك فان الشوط بطين، كفى شرفا عليك بمحمد الأمين ، والأترع البطين ، وبالخمسة أهل الكسا، وبفاطمة بنت سيدة النسا ، أين فى نسائك ونساء العالمين ، مثل فاطمة بنت سيد المرسلين ، جوهرة عقد النبوة الثمين، وأين لك مثل أخواتها إلى يـوم الدين ، أبعدها لفضلك بنسائك تعتدّين ، أم بمن ذكرت مع من ذكرت تعدّين [٤] ، إنك إذا لمن المعتدين .

أين لك مثل سكينة بنت الحسين ، وذات النطاقين [٥] وأين لك مثل عائشة بنت طلحة فائقة نساء العراقين ، أما علمت يا طيبة أنى فى الافتخار واسعة المجال ، تارة بالنساء ، وتارة بالرجال، أين لك مثل الجحاجحة[٦] ، من بنى

---

( ١ ) الزخار : الملآن .

( ٢ ) العتوة : المتكبرة المتجبرة .

( ٣ ) هكذا فى الأصل . ( ٤ ) تعتدين فى الأصل .

( ٥ ) ذات النطاقين هى أسماء بنت أبى بكر وسميت بهذا الاسم لأنها شقت نطاقها ( حزامها ) إلى نصفين لتربط نفسها بنصف، والنصف الآخر لتعلق به الطعام وتذهب به إلى الرسول وأبى بكر فى غار ثور عند هجرتهما .

( ٦ ) الجحاجحة : جمع جحجاح وهو السيد السمح الكريم .

عبد مناف ، والغطارفة (١) من بنى هاشم أشراف الأشراف ، وسادات قريش بلا خلاف ، والغرانيق (٢) من أهل سورة (٣) الإيلاف .

أين لك مثل السابقين الأولين من المهاجرين ، وأين مثلهم فى المستقدمين من هذه الأمة والمستأخرين ، هم الذين هاجروا الهجرتين ، وصلّوا إلى القبلتين، وفارقوا دين عشائرهم مسلمين، وفاتوا(٤) آبائهم وأبنائهم وإخوانهم معميين وكانوا للرسول أعوانا، وفى المكاره أخوانا ، وللحروب سترا ، و عند الكروب صبرا، أنفقوا الأموال الجمة(٥) ،وبذلوا النفوس المحولة المعمة ، وباعوا من الله أنفسهم بما أيقنوا من الثواب ، وكانوا لرسول الله ( ص ) حين آمنوا به أطوع من ثواب ، منهم من خرج من داره لتمسكه بمحبة الرسول عليه السلام مجردا(٦) ، ومنهم من قطعت رجله فى ذات الله ، ومنهم من قطعت يداه فى سبيل الله، ومنهم من أستشهد بين يدى رسول الله ، ومنهم من أتى الزكاة مصليا فى حال ركوع ، واختص بصدقة النجوى فى حال خشوع ، وهو الذى جعله الله نفسا لرسوله فيما أنزله وشبهه الرسول بهارون من موسى له فى المنزلة ، وأخاه من بين أصحابه (٧) ، وسد أبوابهم إلى المسجد دون

---

(١) الغطارفة جمع غطريف وهو السيد الكريم أيضا.

(٢) الغرانيق: جمع غرنوق وهو طائر يضرب به المثل فى حسن المنظر.

(٣) سور فى الأصل. (٤) فتلوا فى الأصل.

(٥) لحمة فى الأصل

(٦) هو صهيب الرومى ، وكان صهيب ذا مال بمكة ، ولما أراد الهجرة طاردته قريش، فترك لهم ماله أجمع ليلحق بالرسول ( ص ) فأدركه فى قباء ، وكان الرسول جالسا وحوله بعض أصحابه حين أهلّ صهيب عليهم، ولم يكد الرسول يراه حتى ناداه متهللا ، " ربح البيع أبا يحيى .. ربح البيع أبا يحيى" وآنئذ نزلت الآية الكريمة ﴿ **ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رؤوف بالعباد** ﴾.

(٧) هو على بن ابى طالب،كرم الله وجهه.

بابه، وفيه وفى زوجته وابنيهما أنزل الله سورة هل أتى ، وهو الذى فدى رسول الله ( ص) بروحه ، وكان أول من آمن بالله وصدق رسوله فى غدوه وسروحه. ومنهم من حمله إلى الهجرة وصحبه حال خروجه [1] ، وكان معه فى الغار عند ولوجه ، فنزل فيه من الآى الكبار ﴿ **ثانى اثنين إذ هما فى الغار** ﴾[2] وهو الذى قال فيه ( ص ) " لو كنت متخذا غير ربى خليلا لاتخذت فلانا خليلا [3]" وهو الذى سماه صديقا، وجعله صهرا وصاحبا ورفيقا.

ومنهم من تلاه فى الصحبة وسماه فاروقًا [4] وكان إسلامه فتحا، ولم يزل الى الخيرات سبوقا، وقال فيه بلا مرية سيد البرية :« لم أر عبقريا يفرى فريّه »[5] .

ومنهم من جهز جيش العسرة من ماله[6] وكان يمين [7] رسول الله ( ص ) وآله، وسمى ذو النورين لفضله وكماله [8].

---

( ١ ) هو أبو بكر الصديق.   ( ٢ ) سورة التوبة آية ٤٠ .

( ٣ ) عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ( ص ) قال:« لو كنت متخذا من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخي وصاحبى »: صحيح البخارى، المجلد الثاني، جـ٥ ، ص ٢٦١.

( ٤ ) هو عمر بن الخطاب ، وقد سماه رسول الله ( ص ) فاروقا لأنه فرق بإسلامه بين الحق والباطل ، وبين الملاينة والمواجهة. : صحيح البخارى ، المجلد الثانى ، جـ٥ ، ص ٢٦٧, ٢٦٩.

( ٥ ) فى الأصل( لم = فلم )، فريه = فريا )X وفى القاموس ( فرى ) الشئ فريا: شقه وفتته والمقصود أن عمر يقطع بالرأى ويفرق بين الحق والباطل.

( ٦ ) هو عثمان بن عفان رضى الله عنه.   ( ٧ ) حين فى الأصل .

( ٨ ) يقال سمى ذو النورين لزواجه من ابنتى رسول الله ( ص ) رقية ثم لما توفيت تزوج أختها أم كلثوم، ويؤثر عن الرسول أنه قال لعثمان بعد وفاة أم كلثوم "لو أن لنا ثالثة لزوجناك إياها" .

ومنهم من سماه الرسول حواريا[1] ، وكان في مواطن الجهاد أسدا هزبريا ، ومنهم سيد الطلحات[2] ، والمشهور له بالأعمال الصالحات ، ومنه من سماه رسول الله ( ص ) أمين هذه الأمة[3]، ومنهم من فداه حين رميه أباه وأمه [4]، ومنهم صاحب المال الدبور [5] ، والذى ورد فيه الحديث المأثور ، ومنهم من سمى سعيدا[6] ، وكان عند الله وجيها وسعيدا .

فهؤلاء العشرة البررة، فمن أين لك مثل هؤلاء المطهرة ، في صناديد من تأخر إسلامه أو تقدم[7] ، رب شامخ علم وراسخ قدم، يطول بذكرهم مسبح الكلام ، ويكفيك في وصفهم السادة الأعلام [8].

ولما قبض رسول الله ( ص ) امتلأت أزقتك يا طيبة جلبة وقعقعة[9] واضطربت أطامك[10] معمعة وزعزعة ، حتى قام خطيب قومى فى تلك السانحة[11] .

ورجعت إلى قوله الآراء وكانت قائلة ، وكانت الخلافة في أبنائى دون

---

( ١ ) هو الزبير بن العوام رضى الله عنه .

( ٢ ) هو طلحة بن عبيد الله .

( ٣ ) هو أبو عبيدة بن الجراح .

( ٤ ) هو سعد بن أبى وقاص .

( ٥ ) هو عبد الرحمن بن عوف .

( ٦ ) هو سعيد بن زيد .

( ٧ ) تقدوم فى الأصل ، وفى = الى فى الأصل، من = ممن فى الأصل .

( ٨ ) بعد كلمة الأعلام ( قالت مكة ) ، وهى لا لزوم لها لأن الكلام ما زال على لسان مكة .

( ٩ ) وقوعة فى الأصل .

( ١٠ ) اطامك : حصونك .

( ١١ ) السانحة : الواقعة .

أبنائك ، فقد بان لك أن بنائي في الفخر أطول من بنائك ، وثنائي في المجد أطيب من ثنائك ، فأدلي عني فضلك إنائك .

وأما ما ذكرت من الجيوش وبعث السرايا والفتوح ، وتلك العطايا فعنّي في الحقيقة تفرعت الفتوح ، ومني في المعنى قرع بابها المفتوح، وهل كنت ياهذه. . . . . إلا . . . . . (١) لسيفي الباتر ، وكنانة لسهمي النافر، وغابة لهزبري الخادر(٢)، وبرجا لقمري الزاهر، ومعدودة من فواتح فتوحاتي ، ومنظومة في يد ملك غدواتي وروحاتي .

ما هبط فيك جبريل الا بعد هبوطه فيّ ، ولا نزل اليك الوحي الا بعد نزوله إليّ (٣) ، ولا فاحت فوائح المحمدية في أرجائك الا بعد أن تعطرت بها أرجائي ، ولا بلغت أرجاؤك من رؤيته إلا بعد ما بلغت أرجائي، ولا سارت منك جنوده(٤) إلا بعد ما خفقت على رأسي بنوده .

هذا وبياهس (٥) كتيبته الخضراء من أشبال أقوامي ، ونواهش لحوم أعدائه بالمشرفية من آساد آجامي (٦) ، وكانت لي فضيلة الصبر أيام تلك المدة، ووسيلة المرابطة للفرج بعد الشدة .

أين أنت من (٧) أيام الشعب وإلصاق الصحيفة ، وقيام الخمسة في

---

( ١ ) مكان النقط كلمتان غير مقروءتان .

( ٢ ) هزبري : أسدي .

( ٣ ) نزل = ينزل في الأصل ، وبعد = عند في الأصل ، نزوله = تنزله في الأصل .

( ٤ ) منك = ( الى فيك ) في الأصل .

( ٥ ) بياهس جمع بيهس وهو الأسد ، والشجاع المتبختر .

( ٦ ) المشرفية : السيوف ، آساد آجامي : أسود حصوني .

( ٧ ) عن في الأصل .

نقضها(١) ، وأكل الأرضة لما كتبوه فى أرضها ، ومشى غرانيق قريش إلى أبى طالب فى هدم هذه الملة الشريفة ،وتقويض أعلامها الشامخة المنيفة ، وهو يأمر محمدا بإظهار دينه ، ويوصى عليًا باتباعه وترزينه(٢) .

ولا نسى إذ اجتمعت قريش على أبياتها ، واستحقرت عليه لفساد نياتها ، حتى كان من كلامه ( ص ) : " ياعم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته " ثم أستعبر ( ص ) باكيا، فقال له عمه : " اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لن أسلمك لشئ أبدا " .

أين أنت يا طيبة من هذه المواقف ، وأنت فى الشدائد كالغزال فى ظل الحاقف(٣) ، ومن أسلم على نفسه ودينه يتحور، وأبو بكر من مس الحجارة

---

( ١ ) الشعب : انفراج بين جبلين .

* وقد اتفق كفار مكة على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب وعاهدوا أنفسهم على ألاّ يتعاملوا .معهم فى بيع أو شراء أو زواج ولا يجالسوهم ولا يكلموهم حتى يسلموا اليهم محمدا( ص ) وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة ، وظل بنو هاشم وبنو عبد المطلب محاصرين مهجورين فى شعب أبى طالب ثلاث سنين لا يصلهم القوت الضرورى إلا خفية وكانوا لا يخرجون إلا فى الأشهر الحرم ، حتى اتفق خمسة نفر على نقض الصحيفة ، وقد رأى رسول الله فى حلمه أن الله قد سلّط الأرضة على الصحيفة ومحت كل ما فيها من ظلم أو قطيعة رحم وبقى بها اسم الله . والخمسة الذين اتفقوا على نقض الصحيفة هم :

١- هشام بن عمرو .     ٢- زهير بن أميّة     ٣- المطعم بن عدى .

٤- البخترى بن هشام .     ٥- زمعة بن الأسود .

( ٢ ) ترزينه : توقيره     ( ٣ ) الحاقف هو مأوى الغزال .

( ٤ ) يتصور فى الأصل، وتضور : تلوى وصاح من وجع الجوع أو الضرب ونحوهماوقد عانى المهاجرون فى المدينة من شدّة العيش ، وكان الصحابة يربطون أحجارا على بطونهم من شدة الجوع، وهناك واقعة تذكر أن الرسول ( ص ) قابل فى وقت الظهيرة كلاً من أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وسألهما عن سبب خروجهما فى هذا الوقت فذكرا له أنهما خرجا من شدة الجوع فقال : " والله لقد أخرجنى الذى أخرجكما .

إذا قام لصلاته يتضور[١] وأنت خلوة من هذا كله ، وكالظبى الكانس فى ظله[٢]، وأنا أخرج اليك من سبائكى كل ميمون النقيبة، وأقدم عليك من ضرائبى كل ميمون الضريبة، وقد ربط الله على الصبر جاشى ، واستودعت طائفة هاجرت إلى النجاشى ، وأنت يا طيبة فى تأبير[٢] نخلك لاهية، وأنا فى هذه الأحوال والأهوال فى أمور ما أدراك ما هيه.

ثم لمّا قبض الله تعالى نبيه (ص) قام بين ظهرانى عمر بن الخطاب [٣] يشحشح، وإناؤه بما وصف رسول الله (ص) فى تقرير الناس على الإسلام يرشح ، وكان من أعلام النبوة قيامه بما وصف ، وبالجملة محمد سليمان أصف [٤]، فلا تنكرى فضلى كفى بقول الله فىّ دليلا ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [٥].

أما علمت أن أبنيتى [٦] رفعت الى السماء ، وحفظت بذلك لمّا ان طغى المـــاء، [٧] ودحيت الأرض من تحت أعمدتى، وبسطت البسيطة من أضيافى[٨] ومروتى،وسميت لذلك أم القرى، فأطرق كرا أطرق كرا[٩]، وأن الفيل وجه الى أصقاعى فبرك، وأراد أبرهة إهلاكي فهلك، وحمانى ربى بارسال الطير الأبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فحينئذ طابت من عبد المطلب نفسه، وطلع سعده وأفل نحسه، وحميت ابله من الأشـــرم ببركتـــى وكانت سائبـــة، وآبت قريش الى منازلها من أجلى بعد أن لم تكن لولا ذلك آيبة.

---

(١) كنس الظبى كنسا : دخل كناسه وهو مدخل فى الشجر يأوى اليه الظبى ليستتر به.

(٢) تابير: تلقيح. (٣) (عمر بن الخطاب) لم يذكرها الناسخ، وكتب بدلا منها الخطبا.

(٤) محمد سليمان اسم مؤلف هذه المفاخرة. (٥) سورة آل عمران آية ٩٧ .

(٦) بنيتى فى الأصل . (٧) الماء ساقطة فى الأصل.

(٨) (اذا ضفائى) فى الأصل.

(٩) كرا: الكروان. وهذا المثل يضرب فيمن يتكلم بما لا يقدر عليه.

فهل لك يا طيبة مثل هذه الحماية، وفى مآثرك ما يشابه هذه الكفاية . هيهات. هيهات[1] ، ليس ذلك إلا لحفظ السر القديم ، ورعاية لدعوة الخليل إبراهيم، وإرادة لإمضاء النبأ العظيم.

قالت المدينة : خفضى من علوائك، وضعى بعض فخرك وخيلائك، أما بلغك أن الدجال لا يدخل بابى[2] ، وأن الله أرسل ملائكة تحفظ أنقابى ، وإن ذلك لى خاصة دون بقاع الأرض ، على سعتها فى الطول والعرض.

قالت مكة : أما سمعت أن البيت المعمور على منار كعبتى، وأن الله سبحانه أمر جندا من ملائكته يحجونه إلى يوم القيامة تشريفا لبقعتى، أما وقر بأسمعك يا طيبة ما قاله (ص) للجزعى أصيل ، وما أضحى [3] به عليه السلام حين سمع وصفى من الزفرة والعويل حتى قال : ويحك يا أصيل، دع الفؤاد فصباباته لمكة[4] يرجحن [5]، ومن أمثالهم ادعوا لها حوارها تحن ، هذا وهو فى ربوعك ساكن، وبين ظهرانى قومك آمن المساكن، فتحركت أحشاؤه الشريفة لما ذكرت صفاتى العجيبة، وتصعدت أنفاسه الكريمة لما حكيت أحوالى المطربة، وأنشد لسان حاله بقول :

---

(١) أضفت هيهات الثانية ليستقيم الأسلوب.

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله (ص) : " على أنقاب المدينة ملائكة، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال" ، صحيح البخارى، المجلد الأول ، جـ٣ ، ص ٤٧٢ .

(٣) (اصحر) فى الأصل. (٤) (لملكة) فى الأصل.

(٥) جاء فى حديث أصيل الغفارى أنه قدم من مكة فسألته عائشة: " كيف تركت مكة يا أصيل؟ فقال: " تركتها حين ابيضت أباطحها ، وأحجن ثمامها، وأعذق أذخرها، وأمشر سلمها، فاغرورقت عينا رسول الله (ص) وقال: " لا تشوقنا يا أصيل، ودع القلوب تقر"

* معنى سلمها : خرج ورقه،وأعذق: أزهر ، الاذخر : نبات طيب الرائحة ، أحجن : التوى، ثمامها: عشب من الفصيلة النجيلية.

* أنظر : أحمد حسن الباقورى، السيرة النبوية فى ظلال القرآن الكريم ، ص ٦٠ .

أحب بلاد الله ما بين منعج ... إلىّ وسلمى أن تصوب سحابها

بلاد بها نيطت علىّ تمائمى ... وأول أرض مسّ جلدى ترابهـا (١)

* * *

وكم أعد يا طيبة من فعل جميل ... وأذكر من ثنا علىّ عرض طويـل

يكفيك منـه واذ يرفـع إبراهـيم ... القواعـد من البيـت وإسماعيل

* * *

أين أنت من ليلة الإسراء، وما اشتملت عليه من الآية الكبرى، أوطأ البراق مناسمه(٢) تراب حرمى ، واستنشق رياض كرمى، وجدد بى عهدا مذ وصل مع الخليل أيام هاجر، متحملا للذبيح وأمه هاجر، فاعتلى الصادق الأمين من فجاجى صهوته(٣) ، فعلوت به من الشرف الرفيع ذروته، وقد رجع إلىّ بعد اختراق السبع سموات، وقد فرض عليه الخمس صلوات ،وقد تلقته الملائكة والأنبياء مستبشرين ، وقد كانوا لسابق الوعد برؤيته منتظرين ، وآب بعد أن وصل إلى سدرة المنتهى ، وانتهى من الشرف والرفعة إلى ما انتهى، وقد أحاط بمقدمه الأنبياء والساقة، وكان كما قيل : حبيب جاء على فاقة (٤) ، فـلا تستنكرى يا طيبة إن بلغت من الفضل الغاية، واذكر اسبق ساق (٥) إنـهـا نهاية .

---

(١) نيطت : علقت . والتمائم جمع تميمة وهى تعويذه تعلق على صدر الإنسان ، والبيت رواه صاحب اللسان عن رافع بن قيس الأسدى، وقد ورد هذا البيت فى ماظرة الزرندى ص ٤٧ : تحقيق سعيد عبد الفتاح، وللشطر الأول صيغة أخرى بكتاب الأغانى هى: بلاد بها حل الشباب تمائمى .

(٢) مناسمه : جمع منسم ومنسم فى اللغة: طرف خف البعير .

(٣) فجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع البعيد .

(٤) الفاقة : الفقر والحاجة . (٥) كلمتان غير مقروءتان فى الأصل .

فلما بلغت مكة فى ذكر محاسنها إلى هذه الغاية، انتفخت من المدينة أوداجها ، وتراكم للمحنة عجاجها (١) ثم قامت على قدميها ، وقالت مستنصرة : يامكة.......(٢) لقد أبعدت فى الشطط، وخلطت الصواب بالغلط ، ومددت النفس فى افتخارك، وأرسلت خليجا من زخارك، إن كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا، أوكنت نهرا فقد ساقيت تيارا.

أين لك يا مكة مثل فضائلى الزهر ، ومناقبى الغر ، وآياتى الباهرة ، وكراماتى الظاهرة ، وأنا بهجة الدنيا ومفتاح الآخرة ، إن ذكرت الشدائد فبى هانت ، وإن وصفت من قومك الجلامد(٣) فبسيفى دانت ، وإن حكيت مالك من السوابق، لم أطق وصف مالى من الفضائل البواسق، لكننى أذكر عيونها، وأبرز لك مكنونها، أليس لى بيعة العقبة الأولى ، ولى بيعة العقبة الثانية من لحق بها منى وأولى، وأنا التى عرض علىّ الإسلام فلم أتمالك أن دخلت فيه، ولم أكن ممن يجاريه ولا ينافيه.

دخلت الإسلام طائعة ، ومددت يدى لنصرته مبايعة، ولم أكن بحمد الله من المؤلفة (٤) ، ولا انقدت بجرير الحق مكلفة(٥) بل سبقت الناس فى دونه، وخلعت عليهم فى جوه، ومددت(٦) باعه، وكثرت أتباعه ، وسمانى رسول الله (ص) طيبة والمدينة، وقال فىّ: " اللهم حبب إلينا المدينة، وانقل وباءها

---

(١) تركم فى الأصل ، وتراكم بمعنى تجمع ، عجاجها بمعنى غبارها.

(٢) يوجد سطر غير واضح فى الأصل.

(٣) الجلامد جمع جلمد ، جلمد بمعنى الصخرة ، والرحل الشديد.

(٤) هم المؤلفة قلوبهم، الحديثو عهد بالإسلام الذين دخلوا الإسلام بعد فتح مكة.

(٥) انفذت فى الأصل، جرير : حبل يقاد به.

(٦) مدت فى الأصل.

إلى مهيعة (١)" ، فأوضح من فضلى منهاجه ، وأبان من شوقه مهيعه ، وكنت لمن قدمنى من المسلمين أما فرشت فأنامت ، وسماء هطلت فأذامت .

وعن عائشة أنها ذكرت لرسول الله (ص) شكوى المهاجرين من جو المدينة الذين لم يألفوه ومنهم أبوبكر الصديق وعامر بن فهيرة وبلال، فقال رسول الله : انهم يهذون وما يعقلون من شدة الحمى، وقال الرسول (ص) " اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مدّها وصاعها ( وزنان ) وانقل وباءها إلى مهيعة" وفى رواية أخرى " إلى الجحفة" : صحيح البخارى ، المجلد الأول ، جـ ٣ ، ص ٧٤٧ .

وذكرت يامكة ما ذكرت من أبنائك ، وقلت إن بنائى فى الفخر(٢) أطول من بنائك ، فمن ادعى بباطل حجج (٣) به، وسيجلى الصبح عن غيهبه(٤)، ابتلى صدور البدور ، بدور الصدور ، وغيوث الأزمات (٥)، وليوث الصدمات، وبحور النوافل، وقلوب الجحافل، وكهوف الأرامل، وزوافر الغر الحوامل، وحسبهم ما وصفهم به عدوهم "رأيت المنايا تحملها الحوايا أبناء الجحاجحة" .

وقال الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

---

(١) وباءها فى الأصل رباها، ومعيهة : هى الجحفة وهى ميقات أهل الشام والمهيع من الطرق : البين.(ج) مهايع. وعن عائشة أنها ذكرت لرسول الله (ص) شكوى المهاجرين من جو المدينة الذين لم يألفوه ومنهم أبو بكر الصديق وعامر بن فهيره وبلال فقال رسول الله: انهم يهذون وما يعقلون من شده الحمى وقال الرسول (ص) «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، وبارك لنا فى مدها وصاعها (وزنان) وانقل وباءها إلى مهيعه» وفى روايه أخرى «إلى الجحفه» : صحيح البخارى، المجلد الأول جـ٣، ص ٤٧٤ .

(٢) الفجر فى الأصل.

(٣) نجح فى الأصل.

(٤) غيهب : ظلمة شديدة.

(٥) الأرزمات فى الأصل.

منهم من واسى الرسول ( ص ) بنفسه، وضارب دونه بسيفه وترسه، حتى فتح الله إلى الجنة بابا فى رمسه(١)، وأزلفه الله بدار رحمته ومحل قدسه وهم المؤملون بالكلوم (٢)، أرباب العلوم، وأطواد الحلوم(٣) ، ومنهم من أخرج لله تعالى ماله(٤) أجمع ، ومنهم من عزم على الموت فى سبيل الله فأزمع ، ومنهم من شارك اخوانه فى الطارف والتليد ، وآثر بزوجته وهو على الصبر جليد ، ومنهم من(٥) سماه النبى ( ص ) سيدا، وجعله للإسلام سندا، ومنهم غسيل الملائكة المتلفعة (٦) ، ومنهم من حكم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة(٧)، ومنهم من أنتدب لقتل كعب بن الأشرف(٨)،وآخر لقتل ابن أبى الحقيق

---

(١) رمسه : قبره.　　(٢) الكلوم جمع كلم بمعنى الجرح .

(٣) أطواد : جمع طود وهو الجبل.　　(٤) ( خرج لله تعالى من ماله ) فى الأصل.

(٥) ما فى الأصل.

(٦) المتلفعة من اللفاع وهو ما يعطى به الجسد كله، كساء كان أو غيره والمقصود هو حنظلة بن أبى عامر بن صيفى بن مالك بن أميّة الأنصارى الأوسى ، وقد ذكر رسول الله ( ص ) أن حنظلة لتغسله الملائكة ، لأنه أستشهد يوم أحد وهو جنب اذ انطلق للمعركة عند سماع الخبر ولم يغتسل ، وقد قتله أبو سفيان بمعاونة ابن شعوب .السيرة ، جـ ٣ ، ص ١٣ .

(٧) أرقعة مفردها رقيع وهى السموات.

والمقصود هو سعد بن معاذ ، وذلك حين حكّمه رسول الله ( ص ) فى بنى قريظة وقد كانوا مواليه ، فحكم سعد بقتل الرجال وتقسيم الأموال وسبى الزرارى والنساء فقال رسول الله ( ص ) لسعد: " لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة" :السيرة ، جـ ٣،ص ١٢١ ــ ١٢٢٠.

(٨) كعب بن الأشرف ، رجل من طيئ وكانت أمه من بنى النضير ، كان شديد العداوة لرسول الله ( ص ) ، بعد غزوة بدر ذهب الى مكة ينشد الأشعار ، ويحرض على رسول الله ، ويبكى أصحاب القليب من قريش ، ثم رجع الى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فأحل الرسول دمه، واستأذن جماعة من الأوس فى قتله ، واجتمع عليه محمد بن مسلمة وسلكان بن وقش ( أبو نائلة ) وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة ، والحارث بن أوس وعباد بن بشر وأبو عيسى بن جبر ، فقتلوه ، وخافت اليهود حينئذ : السيرة، جـ٢ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٦ .

المترف[١]، ومنهم من مدح الله فعله علي الخصوص ، ومنهم من ظفر بمدح رسول الله ( ص ) بالنصوص ، ومنهم الخطبا والشعراء ، ومنهم النقبا والأمراء ، وأين لك يا مكة كسعد بن معاذ ، وبشر بن البراء ، ومن لو ذكرناه علي التيقين لطالت مساحب الكلام ، وحسبك أنهم سادات الإسلام ، وبعد فلهم حديث الكرش والعيبة[٢] ، وفيهم ورد حديث " لو سلكت الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار "[٣] ، فهل بعد هذا من شرف أو فخار، فاعتبروا يا أولي الأبصار ، وما منا إلا من يهتدي بمناره ، ويعشى إلى ضوء نهاره[٤] .

---

( ١ ) ابن أبي الحقيق اسمه سلاّم ولقبه أبو رافع ، وكان شديد العداوة للرسول ( ص ) وهو فيمن حزب الأحزاب على رسول الله وبعد انتهاء غزوة الخندق والفراغ من بنة قريظة ، استأذن جماعة من الخزرج الرسول لقتل ابن أبي الحقيق مثلما فعلت الأوس بكعب بن الأشرف ، وكان مقيما بخيبر فخرج إليه عبد الله بن عتيك ، ومسعود بن سنان وعبد الله بن أنيس ، وأبو قتادة والحارث بن ربعي وخزاعي بن أسود ، وأمر عليهم رسول الله ( ص ) عبد الله بن عتيك ، ونهاهم عن أن يقتلوا وليدا أو امرأة ، وقتلوه ليلا بداره بخيبر ، وقال حسان بن ثابت في قتله وفي قتل كعب بن الأشرف :

| | |
|---|---|
| لله در عصـــابة لاقيتـــهـــم | يا بن الحقيق وأنت يا بن الأشرف |
| يسرون بالبيض الخفاف إليكم | مرحـا كأسـد في عرين معـــرف |
| حتى أتوكم في محل بلادكم | فسـقوكم حتفــا ببيـض ذفـف |
| مستبـــشرين لنصر دين نبيهم | مستـصغرين لكل أمر مجـحـف |

السيرة . جـ٣ ، ص ١٤٣– ١٤٤ .

( ٢ ) الكرش = الكوش فى الأصل

* والعيبة فى اللغة بمعنى الوعاء. والحديث الشريف يقول " الأنصار كرشى وعيبتى " أى موضع سره عليه الصلاة والسلام . السيرة ، جـ٣،ص٢٢ .

( ٣ ) السيرة . المجلد الثانى ، جـ٤، ص ٢٩٤ .

( ٤ ) ناره فى الأصل.

وذكرت يا مكة صبرك علي الشدائد ، فمن أمثالهم كذا كل فجر في الحلا يسر(١) ، وهل وصفت بساعة من ساعات العسر في إناخة الشدائد ، كلا وكلها ونفخت العظام(٢) ، وهل نزل في أو فيك ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾(٣) .

أما بلغك ما منيت به من هذه الأحوال ، أما قرأت ما أمتحنت به من الصبر علي الأهوال(٤) ، حتى كتبت الصحيفة بثلث ثماري إتاوة(٥) ، وبلغت القلوب الحناجر كما نزل في آي التلاوة ، لولا ما أشار به السعدان ، ومحا

---

( ١ ) هكذا في الأصل . .          ( ٢ ) هكذا في الأصل .

( ٣ ) سورة الأحزاب آية ١٠ ، ١١ .

( ٤ ) الأحوال في الأصل .

( ٥ ) في غزوة الخندق عندما اشتد حصار الأحزاب علي المسلمين بالمدينة ، بعث رسول الله ( ص ) إلي عيينة بن حصن وإلي الحارث بن عوف المري ، وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة علي أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجري بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع فيه الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة في ذلك ، فلما أراد رسول الله أن يفعل بعث إلي سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر لهما واستشارهما فيه ، فقالا له : يا رسول الله أمرا تحبه فنصنعه ، أو شيئا أمرك الله به لابد لنا من العمل به أم شيئا تصنعه لنا ، قال : بل شئ اصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلي أمر ما ، فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم علي الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى ( طعام الضيف ) أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ، والله ما كنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله ( ص ) : فأنت وذاك ، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما بها من الكتاب ، ثم قال : ليجهدوا علينا : السيرة ، جـ٣ ، ص ١١٢ .

أحدهما الصحيفة ويداه من الرعشة ترعدان ، فصحيفة يا مكة بصحيفة ، ولي بعد ذلك عليك الخصائص الشريفة ، مني فضلاء من أهل الصفة(١) ، والنجباء المخصوصون يوم الفتح بالزلفة ، واختار الرسول من بني كبني إسرائيل اثني عشر نقيبا(٢) ، وجعلني أهل فعل ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ،لى فضلها وأهلى أهلها ، ولى حديث " أنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم " (٣).

وما أحقنى بقول شيخ بطحائك، وشيبة رؤسائك ولسان فصاحائك :

أعوذ برب الناس من كل طاعن     علينا بسوء وملح بباطل

* * *

يقول مفاخرى لمن ساماها ، قد أنصف القارة من راماها(٤). أنا المدينة

---

(١) أهل الصفة قوم من فقراء المسلمين كانوا يقيمون في صفة أي ظلة مؤخرة مسجد الرسول بالمدينة.

(٢) في بيعة العقبة الثانية اختار رسول الله من الأنصار اثني عشر نقيبا وقال لهم " أنتم علي قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسي بن مريم ، وأنا كفيل علي قومي – يعني المسلمين – قالوا نعم " والنقباء تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، نقباء الخزرج هم :

١– سعد بن زرارة. ٢– سعد بن الربيع. ٣– عبد الله بن رواحه.

٤– رافع بن مالك ٥– البراء بن معرور ٦– عبد الله بن عمرو بن حرام

٧– عبادة بن الصامت ٨– سعد بن عبادة ٩– المنذر عمرو بن خنيس

أما عن نقباء الأوس فهم :

١– أسيد بن خضير ٢– سعد بن خيثمة ٣– رفاعة بن المنذر

السيرة. حـ٢ ، ص ٢٩

(٣) ذكر هذا الحديث في بيعة العقبة الثانية ، السيرة جـ٢ ، ص ٢٨.

(٤) القارة لقب لقبيلة كان قومها رماة ماهرين ، ومن هنا جاء المثل ، كما أن القارة في اللغة هى أرض ذات حجارة سود ، وعلي هذا ينطبق المثل إذ لا تنفذ حجارتها إذا رمي بها ، فمن رماها فقد أنصفها.

وفضلى ، وماذا أردت بكلامك فى تأبير نخلى ، وهل اهتدى سلمان[1] إلى الإيمان إلا بصفتى المرسومة فى الأذهان وتجليتى المخزونة فى الآذان ، وما فتحت فتوح الإسلام إلا من تحت أعذاق نخيلى ، ولا ارتعشت أواوين قصور الشام إلا من طرقى بكرتى وأصيلى ، ولا ضربت الإتاوات إلا من مأنوس قبابى، ولا رفعت الخراجات إلا من محروس جنابى ، ولا خنعت تيجان الأكاسرة إلا لعظيم صولتى ، ولا خضعت أكاليل القياصرة إلا لشديد وطأتى، ولا وصل الهرمزان بتاجه معفرا إلا إلي شريف عتوتي ، ولا ارتعدت فرائص أرمينية إلا من زادة قوتي ، ولا وفدت ملوك اليمن إلا إلي بقعتي ، ولا استكانت بطاركة خراسان إلا من شدة وقعتي[2] ، ولا انتشرت الولايات في الآفاق إلا من معاهدي ، ولا نشرت الرايات في تخوم العراق إلا ببركة مشاهدي ، ولا مصرت الأمصار إلا من أرجائي ، ولا دوحت الأقطار إلا من فائض حبابي[3] ، ولا جندت الأجناد إلا من أكنافي ، ولا وتدت الأوتاد إلا من أطرافي ، وإلي باحاتي وصلت بنات الملك يزدجرد[4] مأسورات ، وإلي ساحاتي سيرت السبايا من الثغور مقهورات ، وكم انتفخت ثغور[5] الروم والقسطنطينية من حركاتي ، وارتجت مصر والإسكندرية من غزواتي ، وارعبت مرازبة[6] الفرس والافرنج من صولاتي ، واقشعرت قبرص وافريقيا وما وراء النهر من صلواتي.

---

(١) هو سلمان الفارسي رضي الله عنه. (٢) وقفتي في الأصل ..

(٣) حبابي جمع حب بكسر الحاه وهو إناء كبير للماء والمعروف في مصر بالزير وفي العراق بالحب. ودوحت من الفعل ( داحت ).وداحت الشجرة - دوحا : بمعنى عظمت فهي دائحة ، والدوحة : الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع الممتدة من شحر ما.

(٤) يزدجرد هو آخر ملوك الفرس.

(٥) ثغور : سحور في الأصل ، والثغور هي المدن التي علي الحدود.

(٦) مرازبة جمع مرزبان وهو الرئيس من الفرس.

ولي الفضيلة التي هي شعار الإسلام المشهور ، وبها ينادي للصلوات في كل وقت مأثور ، وهي فضيلة الآذان[١] ، والتي ورد بتقريرها القرآن .

**قالت مكة** : كلا لا وزر ، تريني السهاد أريها القمر ، في الفضيلة التي تمد علي تصلتك في الفخار ، وتنزل بها منزلة الذهب من الفخار ، مع ما تقدم لي في إحراز فضيلة الصلوات الخمس ، التي هي أظهر من الشمس ، وهي الجمعة المشهورة ، والفريضة المحشورة ، والشعار الأعظم والسنام المقدم ، جاء بـهـا[٢] الكتاب والسنة، وإنها عيد لأهل الدنيا في الدنيا ، ولأهل الجنة في الجنة ، نزل بها جبريل عليه السلام في كفه مصورة ولقنها يوم المزيد ، وأمر النبي ( ص ) وقتئذ[٣] أن يتخذوها يوم عيد .

**قالت المدينة** : حقا لك الافتخار يا مكة لو أقمت أركانها ، وصدقا لكلامك لو رفعت مكانها ، لكنك جهلت أنها زهوة أيام الأسبوع ، فلم يقمها ( ص ) مادام منك في تلك الربوع ، ونحن السابقون إلي تعظيمها قبل

---

( ١ ) كان المسلمون بالمدينة يجتمعون للصلاة في مواقيتها بغير دعوة ، وقد اقترحوا لها بوقا كبوق اليهود أو ناقوسا كناقوس النصاري ، وبينما هم يبحثون ذلك، إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبه .النداء فأتي رسول الله ( ص ) فقال له : يا رسول الله ، أنه طاف بي هذه الليلة طائف . مر بي رجل عليه ثوبان أخضران ، يحمل ناقوسا في يده فقلت له : يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلي الصلاة . قال : أفلا أدلك علي خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تقول الله أكبر .. الخ

فلما أخبر بها رسول الله ( ص ) قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها ، فأنه أندي صوتا منك . فلما أذن بها سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته ، فخرج إلي رسول الله ( ص ) وهو يجر ردائه ، وهو يقول : يا نبي الله ، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى . فقال رسول الله ( ص ) : فلله الحمد علي ذلك .. السيرة حـ٢ ص ٦٨ .

( ٢ ) جاها في الأصل. ( ٣ ) محرفة في الأصل.

أن تفرض ، والقائمون لحقها أن تفرض ، قام بها سعد بن زرارة قبل التنزول[١]، وحض بها قبل الحلول ، جمع بالأنصار وخطبهم، وذكرهم أيام الله تعالي ووعظمهم ، وكانت جمعتنا أول جمعة في الإسلام اشتهرت ، وأول سنة في الإجتماع ظهرت ، ولما وصل كتابه ( ص ) إلي مصعب بن عمير[٢] بفعلها عظمناها وفعلها ، وكنا أحق بها وأهلها ، وامتثلنا أمر الله ورسوله فيها، وزدناها تعظيما وتنويها ، ثم لما خرج ( ص ) أدركته ببلادنا فصلاها بحرة بني بياضة [٣] ، وكانت أول جمعة تولاها بنفسه الكريمة ، وسطعت فينا بوعظه أنوار طلعته الوسيمة .

وذكرت يا مكة فضلك بليلة الإسراء ، فمذهبي في ذلك مذهب الجمهور[٤] ، وإن الإسراء بجسده هو القول المشهور ، وأنت حينئذ لحديث الإسراء جاحدة كاندة[٥] ، وفي التصديق به ملحدة معاندة ، ارتد كثير ممن أسلم ، ونازع في جوازه وما سلم ، وكان ذلك في الإعجاز أعظم من انشقاق القمر ، وحنين الجذع واقتلاع الشجر ، وإن من الحجارة لما يتفجر .

**قالت مكة** : خلا لك الجو فبيضي واصفري ، ونقري ما شئت أن تنقري ؛

---

( ١ ) سعد بن زرارة ( ابو امامة ) هو أول من جمع بالأنصار بالمدينة في هزم النبيت من حرة بني بياضة يقال له نقيع الخضمات وكانوا نحو من أربعين رجلا صلي بهم الجمعة . السيرة جـ٢ ص ٤٢ .

( ٢ ) بعد بيعة العقبة الثانية ودخول عدد كبير من الأنصار في الإسلام ، أرسل رسول الله ( ص ) مصعب بن عمير مع الأنصار إلي المدينة كي يفقههم في الدين ويعرفهم بما فاتهم

( ٣ ) حرة بني بياضة من ضواحي المدينة المنورة.

( ٤ ) الحمير في الأصل ، وبعدها عبارة "ثم أن سلمه لك مذهب الجمهور .

( ٥ ) كند النعمة كنودا : كفرها وجحدها . فهو وهي كنود ، وفي القرآن الكريم ( أن الإنسان لربه لكنود ) الكنود : من يجحد نعم الله.

لابد من صدك يوما فاحذري ، أين لك في زمانك مثل حلف المطيبين[١] ، واجتماع كلمة بني عبد مناف الغر المنتخبين ، ساط لهم الطيب الذي غمسوا أيديهم فيه، أم حكيم البيضاء عمة رسول الله وتوأمه أبيه ، فاجتمعت علي مكارم الأخلاق كلمتهم ، وانتظمت مع كثرة الشقاق ألفتهم، وسكنت بسكونهم الدهماء ، وتمت باجتماعهم النعماء ، ثم ما كان بعده من حلف الفضول[٢] في دار بن جدعان ، والتعاقد فيه علي كف الظلم والعدوان،

---

( ١ ) حلف المطيبين سببه أن قصي بن كلاب بعد أن جمع أمر قريش ، واستطاع أن يتولي أمر مكة وأمر البيت الحرام ، وزع مهام ووظائف البيت الحرام علي أبنائه فأعطي عبد الدار وبنيه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، ولما مات قصي رأى بني عبد مناف أنهم أحق من بني عبد الدار بأمور الكعبة وأنهم أولي بذلك لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم، فتفرقت عند ذلك قريش فكانت طائفة مع بني عبد مناف علي رأيهم يرون انهم أحق به من بني عبد الدار لمكانهم في قومهم وكانت طائفة مع بني عبد الدار يرون أن لا ينزع منهم ما كان قصي جعل إليهم. فعقد كل قوم علي أمرهم حلفا مؤكدا علي أن لا يتخاذلوا ، ولا يسلم بعضهم بعضا، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا أخرجتها لهم أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ( ص ) وتوأمه أبيه ، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا علي أنفسهم فسموا بالمطيبين. وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفا مؤكدا علي أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا فسموا الأحلاف ، فبينما الناس علي ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا إلي الصلح ، علي أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة (الإطعام ) ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار. السيرة جـ١ ص ٩٣- ٩٤

( ٢ ) حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب ، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب ، وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصي بن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه ، فصاح الرجل في الكعبة.

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر
أن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفجر الغدر=

والتراحم بينهم والتعاطف ، والتراءم[1] علي الضعيف والتراءف ، والقيام علي الظالم وإنكاره ، والإمساك علي يده وفي جواره ، والإعانة للمظلوم وشد أزره، والإجابة لصوته ورفع أمره ، حتى رفع الله به عن العرب إصارها[2]، فنحى بما انعقد عليه ما أودعته أوصارها[3]، واشتهر ذكره في البلاد ، وطار صيته في الأغوار منها والأنجاد[4]، وظهر به حكم سواء العاكف فيه والباد[5] وقال من قال[6] :

| | |
|---|---|
| إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا | ألا يقيم ببطن مكة ظالم |
| أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا | فالجار والمعتر فيهم سالم |

وحتى قال (ص) : " لقد شهدت في دار ابن جدعان حلفا ما أحب أن لي بهم حمراء النعم، ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت "[7].

ولو لم يكن في حلف الفضول إلا ما كان ..........[8].

---

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مترك ، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار بن جدعان ، فصنع لهم طعاما ، وتحالفوا في ذي القعدة قبل البعثة النبوية بعشرين عاما ، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم علي الظالم حتى يؤدي إليه حقه ثم مشوا إلي العاصي بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه. السيرة جـ١ ص ٩٥ — ٩٦

(١) التوام في الأصل ، والتراءم من مادة رأم من معناها العطف والحب.

(٢) الاصر : الثقل وفي القرآن ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته علي الذين من قبلنا** ﴾.

(٣) أوصارها : جمع الأصرة ومعناها : ما عطفك علي غيرك من رحم أو قرابة أو مصاهرة أو معروف.

(٤) الغور : كل منخفض من الأرض ، والنجد : ما أرتفع من الأرض.

(٥) العاكف : المقيم ، الباد : المقيم بالبادية.

(٦) قال ذلك الزبير بن عبد المطلب ، انظر مختصر سيرة الرسول ، لمحمد من عبد الوهاب ص ١٧

(٧) السيرة جـ١ ص ٩٦.

(٨) ورد بالمخطوط هنا عبارات محرفة عن حلف الفضول الذي عرفناه في الصفحة السابقة ،=

فلأمر ما قرره الإسلام ، وندب إليه ، وأمر به الرسول ،عليه الصلاة والسلام وأعان عليه، فهل لك يا طيبة مثل هذين الحلفين ، أو هل رضعت من ألبان(١) الفضل مثل هذين الخلقين.

قالت المدينة : إن من البيان لسحرا ، أشبه شرح شرحا لو أن أسمرا(٢) ، أما ما وتربه الرسول ما احوجت إلي حلف الفضول ، وقد دخلت فيه بعد الإسلام ، حين صرح به الحسين عليه السلام(٣).

ولي فضل آية السيف التي نسخ حكمها المتين من الآيات المكية ، فهل لك يا مكة ذرف من هذه النفحات المسكية ، أنسيت :

جاءت سخينة كي تغالب ربها        فليغلبن مغالب الغلاب(٤)

---

= ونص تلك العبارات " ما كان من اجبار نبيه ابن الحجاج علي رد القتو وقد غصبها من يد أبيه هضما وهم أن يفترسها بغير حقها ظلما ، ولما أيس منه أبوه نادي بالحلف فاذهم يعنقون إليه بكل سيف مسلول فعمدوا يتها فاستخرحوا للخثعمي عقليته وردوا إليه علي كره من ظلمه وديعته فلأمر ما ".

(١) لبان في الأصل.        (٢) هكذا في الأصل.

(٣) كان بين الحسين بن على بن أبى طالب ( سيد الشهداء ) وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان منازعة فى مال كان بينهما بذى المروة ، وأراد الوليد أن يأكل حقه لسلطانه ، فقال له الحسين : أحلف بالله لتنصفنى من حقى أو لآخذن سيفى تم لأقومن فى مسجد رسول الله ( ص ) — تم لادعون بحلف الفضول ، وأيده فى ذلك جماعة منهم عبد الله بن الزبير ، فلما بلغ ذلك الوليد أنصف الحسين من حقه حتى رضى ( السيرة جـ ١ ص ٩٦ )

(٤) سخينة لقب قريش فى الجاهلية وعرفت به أيام قصى بن كلاب لأنه كان يصنع الطعام المسمى سخينة وهى طعام تتخذ من الدقيق دون العصيدة فى الرقة وفوق الحساء وعليه لحم وهذا البيت آخر بيت لقصيدة كعب بن مالك التى يرد فيها على عبد الله الزعبرى السهمى فى يوم الخندق ، وقد ذكر إبن هشام أن رسول الله ( ص ) قال : "لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا" السيرة حـ٣ ص ١٣٥ .

شكر الله كعب إبن مالك على قوله هذا ، وأخبر أن قومك يتسللون لحزبي[١] لواذا، فأين تباه بك أم هل بلغت الفضل فى هذا [٢].

**قالت مكة** : لي محمد بن إدريس[٣] الذي سارت في الفقه رسائله[٤] ، وسالت في العلم مسائله.

**قالت المدينة** : الشافعي يا مكة من كمالك ، ولكن في الأمثال رجل ولا كمالك ، لي مالك بن أنس صاحب العقب الموطأ ، والشافعي ارتحل[٥] إليه لسماع الموطأ ، وهو يعد شيخ السنة النبوية ، وعمدة الفرق الإسلامية ، روى الأحاديث المربعة ، وبعلمه انتفع أهل الأمصار الأربعة ، وهو الذي لم يركب دابة علي أرض طيبة إجلالا لمن دفن فيها[٦] ، وكان يتطهر للأحاديث يرويها، وقرأ حديث رسول الله وجلل ، وفصل أحكام الشريعة وعلل.

* * *

**قالت مكة** : علم الشافعي أوسع علما من الجو المتعبق ، وأمرق[٧] فقها من البحر المتدفق ، ومن فضلي إجماعي حجة ، وإلي رضوان الله محجة ، ولم يك لبلد من هذه الفضيلة من[٨] نصيب ، وما ذلك إلا لأني[٩] تمسكت من الياقوت الأحمر بقضيب.

**قالت مكة**[١٠] : الزمخشري جارى بيت بيت ، وكشافه مكي فدعي من كلامك كيت وكيت.

---

(١) لحربي فى الأصل.

(٢) فى الأصل ( فى هذا الفضل ).

(٣) هو الإمام الشافعي.

(٤) في الأصل ( مسائله ).

(٥) ( ارتحلت ) في الأصل.

(٦) ( دفن ) ساقطة في الأصل.

(٧) ( أمر ) في الأصل.

(٨) ( من ) أضفتها ليستقيم المعني.

(٩) ( أني ) فى الأصل.

(١٠) هناك فقرة ساقطة من الأصل على لسان المدينة.

**قالت المدينة** : ما طار إليك إلا من لوحي ، ولا نفخ في جسد التفسير إلا من روحي

* * *

**قالت مكة** : له[1] في مدائحي السلاسل المكيات.

**قالت المدينة** : له في محاسني الفراد النبويات ، وديوانه يشهد لي بالزيادة من نفثات أقلامه[2] ، والإجادة من نفحات كلامه.

* * *

**قالت مكة** : الحق أحق أن يتبع ، أنت أيتها السيدة[3] المعمورة الأركان، المطهرة المكان، زائرك محدود ، وهاجرك[4] محروم ، وحج من لم يتشح[5] بترابك. محروم، وأنت طيبة العلوم ، وما منا إلا له مقام معلوم.

فحين سمعت المدينة هذا الكلام خفضت صوتها وقالت : يا مكة ، عليك من الله السلام، فأنت تحفة ذي الجلال والإكرام ، فيك الكعبة المنصوبة، وأنت الرحمة المصبوبة، والحبيبة المحبوبة ، والبغية المطلوبة ، والذريعة الموصلة إلي رضوان الله الأكبر ، والوسيلة إلي الله الله أكبر.

ولي فضيلة الضريح الشريف ، ولك فضيلة التعريف ، والركن المعروف ، ولست أجهل ما خصصت به من الحجر والمقام ، ولا تجهلين ما استأثرت به من أنواره عليه أفضل الصلاة وأزكي السلام ، ولي حديث "إن الإيمان يأرز إلي

---

(١) (له ) ساقطة في الأصل.

(٢) ( أقلامها ) في الأصل.

(٣) (ايها ) في الأصل.

(٤) (وذو هاحرك ) في الأصل.

(٥) يتشح : يتغطي.

المدينة كما تأرز الحية إلي جحرها "[١]، ولك فضل إيواء طوائف الحجيج كما تأوي الطير إلي وكرها ، ولك إن الله حرم مكة المشرفة ، وجعل لها حدودا من كل جهة مختافة ، وأنا حرمت المدينة من عير إلي ثور[٢].

فماذا بعد الحق إلا الضلال. نعوذ بالله من الجور بعد الكور[٣] وقد كفانا مؤونة الانتحال ، حديث " لا تشد الرحال "[٤] ، وهذا كلام من لا ينطق عن الهوا ، أبرز لنا حقيقة الإستوا. تمت[٥].

قال مؤلف هذه المفاخرة : وبعد ، فإني لما وقفت علي المفاخرة التي أنشأها أفيق البراعة ، لسان الأدباء ، وحسان الأدباء علي بن يوسف الزرندي[٦] ، رأيت طبقا من وروده وطابقاً من زنده ، وزهراً فاح من رياض زرنده ،وجوهراً لاح من خلاصة فرنده، فقلت : سبحان من تفاضل بين عباده في الإنشاء ، ورجعت إلي أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، أسمت بصري في روضة صناعته ، فرأيت أبهى من جناح الطاووس ، ووسمت فكري بوسامة براعته ، فوجدت ما تصنعه بحاسيها الكؤوس ، فلله سحر البيان ما أعظم تلعبه بالألباب ، ولله لبابه ما أشرفه وأفضله من الباب ، ولما رأيت من الصناعة المذكورة ما أذهل اللب وأدهشه ، وهز نشاط القلب وأرعشه ، تاقت النفس

---

( ١ ) صحيح البخاري ، المجلد الأول ، جـ٣ ص ٤٧١ .
يأرز " أي ينضم ويتجمع .وقد ورد هذا الحديث في الأصل بالصيعة التالية " الإسلام بارر إلي المدينة كما بارز الحية إلي حجرها " .

( ٢ ) متفق عليه. أنظره السيد سابق ، فقه السنة ، نشر دار الكتاب العربي ، ص ٦٨٨ .

( ٣ ) الجور : الظلم ، الكور : الجمع.

( ٤ ) عن أبي هريرة ، أن النبي ( ص ) قال : لا تشد الرحال إلا إلي ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى ، صحيح البخاري ، الجزء الأول جـ٢ ص ٢٩٦ ، فقه السنة ، المجلد الأول ص ٧١٧ .

( ٥ ) تمت إضافة من عندي.

( ٦ ) توفي سنة ٧٧٢ هـ.

إلي التملي بخصوص[1] ما ألقته قريحة هذا الماهر علي ساحل بحره ، واشتاقت إلي التحلي بما نقص مما أسارته أساور هذا البحر الزاخر ولم يرضه لزينة نحره ، فجمعت من هذا القبيل ، ما لا يعد من البلاغة في دبير ولا قبيل، وما هو إلا إلتقاط من فضالة قلائده ، واكتساب من نثارة فرائده، ورأيت ما ابتدع من هذه المفاخرة البديعة ، واخترع من هذه المفاضلة البليغة ، فوجدتها محتملة للزيادة ، ومشتملة علي كوز الإفادة ، لو وجدت من يفري هذا الفج[2] العميق بضامر ، وبيني هذا الجوسق الترشيق بعامر ، وهيهات هيهات، ذهب الأدب وسالت نفاضته، ونقص رونقه ، واستؤصلت مقامته ، فلم يبق إلا سمكة كسمكة الإداوة أو[3].

---

( ١ ) بخصص في الأصل.

( ٢ ) الفخ في الأصل.

( ٣ ) نهاية المخطوطة.

# الفهـــارس

## ١- فهرس الآيات القرآنية :

## ٢- فهرس الأحاديث النبوية

## ٣- فهرس الآشعار

- فهرس الأمثال

## ٥ - كشاف الأعلام والجماعات

## ٦ - فهرس الأماكن والبلدان

## ٧- فهرس الأحداث والمصطلحات

# هـذا الكتـاب

مكة والمدينة مدينتان حبيبتان لكل مسلم، وقد اختار المؤلف قالب المفاخرة لموضوع رسالته عنهما، وقد وفق في شكل وأسلوب رسالته أيما توفيق؛ فامتازت المفاخرة ببراعة الاستهلال وإحكام البناء الدرامي القائم على حوار موضوعه صراع بين طرفين بدأه بجمل قصيرة متعاقبة ذات جرس موسيقي أخاذ ويتصاعد الصراع الدرامي فيتحول إلى فقرات مطولة تسمح لكل طرف بسرد مميزاته ومثالب منافسه وينهي المؤلف المفاخرة بحل يرضي الطرفين إذ تثني كل بلدة على الأخرى وعلى نفسها بما لها من أفضال ومميزات إذ إن كلاهما نال من تكريم الرحمن ما يليق بها. وقدمت لنا المفاخرة سيرة الرسول ﷺ في كل من مكة والمدينة بإيجاز وافٍ دقيق يتفق مع سيرة ابن هشام وقدمت كذلك أهم الأحداث الدينية والتاريخية التي شهدتها المدينتان بصدق وأمانة.

الناشر